

تفسير البحر المحيط

@ 529 { فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ * لَيْسَ سُوْعَاوًا وَجُوْهُكُمْ ° وَلَيَدْخُلُوْا °
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوْهُ أَوْ لَمْ يَدْخُلُوْا ° وَمَا عَلَوْا ° تَتَّبِعِرًا
{ ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم) أخبر أن ذا السويقتين من الحبشة يهدم الكعبة حجراً
حجراً . فلما رأى أن هذا يعارض الآية ، إذا جعلناها حجراً لفظاً ، ومعنى حملها على الأمر
ودالتها على الأمر لنا بالإخافة لهم بعيدة جداً ، وإذا حملنا الآية على ما ذكرناه ، بطلت
هذه الأقوال . وأما قوله تعالى : { فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ } ، فليس ذلك كناية
عن يوم القيامة ، وسيأتي الكلام عليه في موضعه ، إن شاء الله تعالى . وقوله : {
أَوْ لَمْ يَدْخُلُوْا } ، حمل على معنى من في قوله : { وَمَنْ ° أَطْلَمُ } ، ولا يختص الحمل فيها
على اللفظ وعلى المعنى بكونها موصولة ، بل هي كذلك في سائر معانيها من الوصل والشرط
والاستفهام ، وكلاهما موجود فيها في سائر معانيها في كلام العرب . أما إذا كانت موصوفة
نحو : مررت بمن محسن لك ، فليس في محفوطي من كلام العرب مراعاة المعنى فيها . وقد
تكلمنا قبل على كونها موصوفة . وقال بعض الناس في قوله تعالى : { وَمَنْ ° أَطْلَمُ } :
الآية ، دليل على منع دخول الكافر المسجد ، ثم ذكر اختلاف الفقهاء في ذلك ، وهي مسألة
تذكر في علم الفقه ، وليس في الآية ما يدل على ما ذكره على ما فهمنا نحن من الآية . .
{ لَهُمْ ° فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ° وَلَهُمْ ° فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } : هذا
الجزاء مناسب لما صدر منهم . أما الخزي في الدنيا فهو الهوان والإذلال ، وهو مناسب للوصف
الأول ، لأن فيه إخمال المساجد بعدم ذكر الله وتعطيلها من ذلك ، فجوزوا على ذلك بالإذلال
والهوان . وأما العذاب العظيم في الآخرة ، فهو العذاب بالنار ، وهو إتلاف لهاكلهم
وصورهم ، وتخريب لها بعد تخريب { كَلَّمَا ° نَضَجَتْ ° جُلُودُهُمْ ° بَدَلًا لِّذَنَابِهِمْ °
جُلُودًا ° غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ° الْعَذَابَ } . وهو مناسب للوصف الثاني ، وهو سعيهم
في تخريب المساجد ، فجوزوا على ذلك بتخريب صورهم وتمزيقها بالعذاب . ولما كان الخزي
الذي يلحقهم في الدنيا لا يتفاوتون فيه حكماً ، سواء فسرت بقتل أو سبي للحربي ، أو
جزية للذمي ، لم يحتج إلى وصف . ولما كان العذاب متفاوتاً ، أعني عذاب الكافر وعذاب
المؤمن ، وصف عذاب الكافر بالعظم ليتميز من عذاب المؤمن . وقيل : الخزي هو الفتح
الإسلامي ، كالقسطنطينية وعمورية ورومية ، وقيل : جزية الذمي ، قاله ابن عباس ، وقيل :
طردهم عن المسجد الحرام ، وقيل : قتل المهدي إياهم إذا خرج ، قاله المروزي ، وقيل :
منعهم من المساجد . قال بعض معاصرينا : إن على كل طائفة من الكفار في الدنيا خزيًا .

أما اليهود والنصارى ، فقتل قريظة ، وإجلاء بني النضير ، وقتل النصارى وفتح حصونهم
وبلادهم ، وإجراء الجزية عليهم ، والسيما التي التزموها ، وما شرطه عمر عليهم . وأما
مشركو العرب ، فقتل أبطالهم وأقيالهم ، وكسر أصنامهم ، وتسفيه أحلامهم ، وإخراجهم من
جزيرة العرب التي هي دار قرارهم ومسقط رؤوسهم ، وإلزامهم خطة الهلاك من القتل إلا أن
يسلموا . وقال الفرّاء : معناه في آخر الدنيا ، وهو ما وعد الله به المسلمين من فتح
الروم ، ولم يكن بعد . قال القشيري : في قوله تعالى : { وَ مَن أَظْلَمُ } الآية ،
إشارة إلى ظلم من خرب أوطان المعرفة بالمنى والعلاقات ، وهي قلوب العارفين وأوطان
العبادة بالشهوات ، وهي نفوس العباد وأوطان المحبة بالحظوظ والمسكنات ، وهي أرواح
الواجدين وأوطان المشاهدات بالالتفات إلى القربات ، وهي أسرار الموحدين . { لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ } : ذل الحجاب ، وفي الآخرة عذاب لاقتناعهم بالدرجات . انتهى ، وبعضه
ملخص . وهذا تفسير عجيب ينبو عنه لفظ القرآن ، وكذا أكثر ما يقوله هؤلاء القوم . .
{ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّ يَدْمَامًا تُؤَلِّسُوا فَنُدْمَمُوا } وَجِهَةٌ
اللاهية : قال الحسن وقتادة : أباح لهم في الابتداء أن يصلوا حيث شاؤوا ، فنسخ ذلك .
وقال مجاهد والضحاك : معناها إشارة إلى الكعبة ، أي حيثما كنتم من المشرق والمغرب ،
فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة . فعلى هذا هي ناسخة لبيت المقدس . وقال أبو
العالية وابن زيد : نزلت جواباً لمن عير من اليهود بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى
الكعبة . وقال ابن عمر : نزلت في صلاة المسافر ، حيث توجهت به دابته . وقيل : جواب لمن
قال : أقرب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ قاله سعيد بن جبير . وقيل : في الصلاة
على النجاشي ، حيث قالوا : لم يكن يصلي إلى قبلتنا . وقيل : فيمن اشتبهت